آفاق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الكريم غلاب
سيـــرة الكتابـــة الروائيـــة والقصصيـــة (*)

(*) نصوص المداخلات المقدمة في ندوة تكريم عبد الكريم غلاب (اتحاد كتاب المغرب، فاس 10/11 ماي 1991)

«المعلم علي»: الروائي والإديولوجي

□ أحمد اليبوري

ترتكز هذه المداخلة على مجموعة من القواعد التي نوظفها لقراءة رواية (المعلم علي) للأستاذ عبد الكريم غلاب، نوجزها فيما يلي : إنها تنطلق من المبدأ الذي دأبت على الأخذ به بعض النظريات السردية في التمييز بين الكاتب الواقعي والكاتب المجرد، باعتبار الثاني كما يقال : «يمثل المعنى العميق والدلالة الشاملة للعمل الأدبي» [1] ويقدم رؤيا للعالم قد تختلف عن تلك التي يتبناها نفس الكاتب خارج حقل الإبداع.

ويقتضي اعتماد هذه القاعدة التحلي بكثير من الحيطة في قراءة ع ــ غلاب الروائي، انطلاقا من كتاباته التاريخية أو السياسية أو القانونية حيث كثيرا ما تتم المطابقة بين الروائي من جهة والمؤرخ أو السياسي أو القانوني، من جهة ثانية، وتصبح، نتيجة لذلك، بعض كتب غلاب، مثل (الاستقلالية عقيدة ومذهب) ــ 1960، و (تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب) ــ 1976، و (الثقافة والفكر في مواجهة التحدي) ــ 1976، والتطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1978،.. وغيرها، مدونات مرجعية لتأويل النصوص الروائية؛ ويؤدي ذلك، بصفة عامة، إلى تهميش المتخيل بمختلف مكوناته، والرمزي بتعدد دلالاته لحساب التاريخي والواقعي.

واعتماد هذه القاعدة لا ينفي وجود صوت الكاتب ضمن باقي الأصوات : أصوات الساردين والشخصيات، دون هيمنة، والا تحولت الرواية إلى مجموعة مقالات وتأملات وسلسلة من المشاهد الوصفية التي تعبر بصفة مباشرة عن آراء الكاتب ومواقفه الشخصية.

ولا يخفى أن كل قراءة للأعمال الروائية ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار استراتيجية الروائي كمنتج لخطاب تخييلي يتوجه به إلى متلقين وقراء مجردين، متوسطا بتقنيات عدة ليس أقلها (التعتيم) و

(المناورة) اللذان قد يلجأ إليهما لدواعي فنية وإديولوجية على السواء؛ وكثيراًما ينساق القارئ الساذج كما يسميه (امبرتوإيكو) [2] وراء الإشارات المباشرة التي كثيراً ما تغري بالمقارنة بين الرواية والتاريخ.

وترتبط القواعد المشار إليها بمبدأ أساسي يعتبر النصوص الروائية الحقيقية مجالا لتعدد الدلالات وتنوع الأفكار وصراع الاختيارات.

وإذا كان ع. غلاب ككاتب واقعي يؤمن بالالتزام الفكري والسياسي، ويدعو ويعمل من أجل أهداف وطنية وقومية، ضمن رسالة ثقافية وحضارية واضحة المعالم، فإن غلاب الكاتب المجرد قد يطرح أسئلة بطرق فنية غير مباشرة، في لحظة الإبداع، على بعض أنماط السلوك والممارسة، كما يمكن أن يدخل في جدل مع بعض المسلمات التي تؤطر منظومته الفكرية والسياسية.

تندرج (المعلم علي) فيما يسمى برواية (التمرس والتكون Apprentissage)، وما يتصل بهما من تمرن وتمهن وتعلم؛ وهي، نتيجة لذلك ، تقع في دائرة السيرة الروائية التي تقدم المراحل الأساسية من حياة شخصية متخيلة.

وإذا كانت الموضوعية النسبية من خصائص السرد في تقديمها لشخصيات لها موقع في التاريخ ومكانة في المجتمع، وإذا كان غياب تلك الموضوعية بصفة عامة، من أبرز سمات السيرة الذاتية، فإن رواية التمرس تمتح في تكونها وتجنسها من السيرة والسيرة الذاتية على السواء، رغم اختراقها لميثاقهما معاً وانخراطها أساساً في ميثاق التخييل.

وتحيل (المعلم علي) في محطاتها الكبرى على مفهوم التكون، بمختلف مستوياته : مستوى التمهن بالمطحنة ودار الدبغ، ومعمل الزليج.. ومعمل الصابون؛ مستوى التعلم، ويتعلق الأمر بالفرنسية التي كان (علي) كما يقول النص «يفغر فاه كأبله، كلما حدثوه بهذه اللغة التي لا يفهمها» [3]، والتي لم تمض إلا فترة وجيزة حتى وأخذ ينطقها محرفة مضحكة في البداية، ولكنه أتقن النطق مع الزمن، وإن لم يكن يفهم إلا ما يتصل بأوامر الفنيين وصناعة الصابون» [4]. وهناك مستوى ثالث للتمرس، يتجاوز المهني واللغوي، إنه التكون الإديولوجي الذي جعل البطل عن طريق احتكاكه بالآخرين، يقترب من إدراك العلاقات المعقدة بين السياسي والنقابي، أي ينتقل تدريجيا وببطء من الوعي الواقعي إلى الوعي الممكن.

ويتميز هذا الصنف الروائي، كما يرى بعض الدارسين [5] بتوفره على خاصية التحول التي تؤطر حياة الشخصية الرئيسية : تحول من الجهل إلى المعرفة، وفي مقدمتها معرفة الذات في علاقتها بالعالم، يوازيه تحول آخر من السلبية إلى الإيجابية والفعالية، وذلك ما تؤكده المراحل المتتابعة من حياة (علي).

وحسب (لوكاش) [6] أيضاً فإن رواية التمرس، بخلاف رواية المثالية أو رواية انجلاء الوهم الرومانسي، ترتكز على العمل والتأمل. وإذا كان العنصر الأول (العمل) كوسيلة لاكتساب مهارات يحتل مركزاً أساسياً في (المعلم علي)، فإن عنصر التأمل يبرز بشكل مضطرب نسبياً، رغم اعتبارنا لكل المواقف المتصلة بـ (عدم الفهم) محاولات للتأمل.

إذا كانت (المعلم علي)، من حيث التجنس الأدبي، ذات صلة، كما أشرنا آنفاً، بالسيرة والسيرة الذاتية، فإن لها، من ناحية أخرى، نسائج تربطها، ظاهرياً بالقصة القصيرة؛ إذ من الممكن

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

اعتبار كل مرحلة، على حدة من حياة (علي)، في المطحنة، ودار الدبغ، والخرازة، داخل النص، قصة قصيرة، تقدم شريحة حياتية ذات إيقاع خاص، يسودها انسحاق الفرد وغربته، داخل الدوائر الاجتماعية المغلقة التي كان يعيش فيها؛ ولم يتم تجاوز مستوى علاقة التجاور بين هذه القصص إلى مستوى علاقة التفاعل؛ الا عن طريق المكوّن الإديولوجي، الذي ساعد على نقل الشخصيات من مستوى الانفعال، إلى مستوى الفعل، ومن رد الفعل الذاتي إلى الوعي الجماعي، ومن مناجاة الذات إلى محاورة الآخر، ومن اجترار الأوهام إلى الدخول في حلبة الصراع وما يرافقه من تعدد على مستوى الأصوات واللغات والرؤى؛ وهي كلها مكوّنات ساهمت في تحوّل القصصي القصير إلى روائي، وأصبح ما كان يعتبر بنيات سردية متجاورة بنيات روائية صغرى داخل النص الروائي الأصل.

ومن منظور آخر يمكن قراءة (المعلم علي) كمتتا نص، ليس بمعنى إنتاج خطابات حول النصوص، ولكن في إطار إضاءاتها المتعددة لصيرورة تناقضاتها الخاصة [7]. فهذه الرواية تحكي في الان ذاته، عن مراحل تكون (علي) وأيضا عن طرق اشتغالها النصي بين السيري والسير ذاتي والقصصي من جهة، والروائي، من جهة ثانية. إنها، بعبارة أخرى، تتحدث عن تكون (وعي وطني) وعن تكون (جنس أدبي).

إذا كان الإديولوجي قد ساهم في تكون الروائي، فإن الروائي بما يحفل به من إشارات ورموز وصور.. قد استطاع الإفلات من شرك الأطروحي المباشر، في مرحلة أولى، ونسفه عن طريق إيديولوجية مضادة في مرحلة ثانية.

فعلى مستوى التشكيل يبرز المعمار الروائي مكاناً متميزاً هو ضريح مولاي إدريس، مزيناً، كما تقول الرواية، بالأعلام الخضراء المطرزة بخيوط الذهب، وقد وضعت جنباته بالشموع وقدمت على أعتابه الأموال والقرابين، إنه مكان مقدس (تتجسد فيه لحظة من التاريخ وترتبط كل الأشياء المائلة فيه بمناطق معينة من الوعي) [8]، ويتحكم كفضاء نصي في باقي الفضاءات ويؤطر الشخوص، رغم ما يبدو من حدوث تحول نحو مواقع أخرى جديدة.

هناك فضاءات تدخل مباشرة تحت دائرة القبة الخضراء وتقع تحت تأثيرها، متمثلة في عالم الحرف التقليدية.

ويوجد خارج جاذبية القبة معمل الصابون الفرنسي، بتنظيماته، وشخوصه، ومشاريعه، وارتباطه مباشرة بالغرب، أمّا المؤسسة الجديدة السياسة النقابية فتقع داخل ــ خارج تأثير جاذبية القبة : ذهنية وسلوك بعض الشخصيات؛ الانفتاح النسبي على الحداثه.

من هنا تأتي أهمية الفصلين المتعلقين بالموسم الإدريسي، لمساهمتهما في تشكيل المعمار الروائي وتأثيثه بدلالات لا يقدمهاالنص عن طريق السرد المباشر.

ومما يلاحظ أن تقنية التشكيل المعماري الروائي كانت مقرونة بعملية تقديم الشخوص بطريقة تقوم على التناظر : من جهة مولاي إدريس، صانع المدينة وبانيها، مول البلاد، مول القبة الخضراء، الصالح الذي يتقرب إليه : «لتروى السماء الأرض العطش، ولتهطل الأمطار بغزارة...» [9]، وفي مقابله، وكامتداد له يبدو الفقيه عبد العزيز، بجديته ووقاره، وبالنور الذي يحيط به : «كضمير اختفى منه

الجسد، وتضاءل منه الصوت... احتواهما (علي والحياني) بقوة غيبية ودوّى في داخلها هدير منه، لم لم يكن صوتاً، ولكنه كان هداية» [10].

لقد خلق السارد مسافة تفصله عن الفقيه عبد العزيز، وتمكن عن طريق تثبيت الصورة والموقف إلى نقله من موقع شخصية وطنية مثالية إلى موقع شخصية مهيمنة تتجاوز دور تأجيج الوعي إلى دور الوصي على الوعي. ورغم أنه كان يردد : «ما أحب أن أفرض عليكم قراراً ولكني أحب أن تهتدوا إليه» [11]، فإنه، كان كما قال عنه (علي) لصديقه (الحياني) : « أنسيت حرصه (عبد العزيز) على ألا نقوم بعمل دون مشورته [12]».

كان سلوك عبد العزيز يواجه أحياناً بنوع، من التشكيك : ففي المشهد الذي أخبر فيه الجماعة التي كانت تتلقى تعليماته : «ستعتقلكما (الإدارة) ولجنة النقابة... كما ستعتقلنا نحن... وستطرد مآت العمال من عملهم، وسيعود الآلاف إلى عملهم تحت الضغط والإهانة» [13]، علق «عبد الهادي» لم نكن نعرف أنك متنبي [14] وأضاف عبد الباقي : «الأمل ألا تكون مسيلمة» [15].

لقد وظفت الرواية أساليب التضخيم التشويه، والتشكيك والسخرية المقنعة في نقدها غير المباشر للوثوقية التي كان يتسم بها خطاب عبد العزيز، ورغم عدم اختلافها إطلاقا في المسألة الوطنية، فإنها عمدت إلى رفع الحجاب عن الجوانب السلبية في بعض أنماط الإدراك والتصور والسلوك.

تقدم (المعلم علي) رسالتها المباشرة من خلال شعارات وأفكار تدور حول الاستقلال الوطني والمطالب النقابية، ويمكن تلخيص أطروحتها المركزية في التأكيد على أن الاستقلال كهدف لا يمكن الحصول عليه إلا باتحاد الطبقة العاملة مع الطبقة البورجوازية المستنيرة في إطار وعي وطني يتجاوز الصراعات الطبقية.

وإذا كانت هذه الأطروحة قد تم إدراكها من طرف بعض الشخصيات الروائية، فإن تساؤلات بقيت مطروحة بدون أجوبة؛ فالنص يتحدث عن (المصالح) بصيغة مبهمة على لسان عبد العزيز، وهو يشير أيضا في عدة فصول إلى مواقف (علي) و (الحياني) المتسمة بـ (عدم الفهم) التي تعني، حسب السياق، (عدم الاقتناع) بطروحات عبد العزيز، خاصة أن في تجربتهما مع المعلمين، وماعانياه منهم من عسف واستغلال، في المطحنة ودار الدبغ... ما جعلهما متشككين فيما يسمى بالمصالح، ونستنتج من التحليلات النصية الصغرى أن جل الفقرات التي تحيل على (عدم الفهم) في هذه الرواية، تدخل في إطار (وعي طبقي)، متميز عن (الوعي الوطني)، غير عميق، وغير مكتمل، ولكنه كان في طريق التبلور.

ARCHIVE